الكتاب وعصر المعلومات

د. تغريد القدسي
أستاذ مشارك / برنامج علوم المكتبات والمعلومات
كلية الدراسات العليا / جامعة الكويت
عضوه مؤسسه للهيئة العالمية لكتب الأطفال/فرع الكويت KUBBY

مع صدور هذا العدد، يحتفل في ٢٢ نيسان بيوم الكتاب وحقوق الطبع العالمي، وتمر هذه المناسبة في أغلب الأحيان دون انتباه منّا. ويحتم علينا التغيير التكنولوجي المحيط بنا التأمل في علاقتنا وعلاقة أولادنا بالكتاب. إن ما عبرنا عنه بعلاقتنا بالكتاب يعبر عنه الآن وبلغة هذا العصر بالعلاقة بالمعلومات وذلك نتيجة للتطور الهائل في تكنولوجيا المعلومات كما نتيجة للإنفجار المعلوماتي والمعرفي الذي يميز هذا العصر والمستقبل القريب.

أذكر أن الإقبال على القراءة وبنهم ليس له مثيل قد ميز جيلنا عندما ارتدنا المدارس طلبا للعلم، ولقد كان ذلك بمثابة موضة الوقت، فلقد قرأنا دون إلحاح من والدينا أو مدرسينا. كانت عادة نمت معنا رويدا رويدا حتى تطورت وغدونا لا نستغني عنها أبدا. ومع ازدياد تعقد وتطور أوعية المعلومات بدأنا نتيجة لأوعية أخرى نجد ضالتنا فيها من المحتوى الذي نريده، أي من المعلومات. وبمعنى آخر فإن تطور وتجدد الأوعية المختلفة التي تحوى المعلومات والتي أصبحت جزء من تكويننا لم تبعدنا عن الكتاب كما ولم تبعدنا عن المعلومات بغض النظر عن الوعاء الذي يتم تغليفها به. ولكن ما الذي حدث على الطريق وكيف وصلنا بأبنائنا لهذا المستوى ونحن الجيل القارئ المتباهي بالقراءه وميزاتها وفوائدها؟

أولا:

لقد نما النظام التعليمي في بلادنا بسرعة أثقلت معها صناعة النشر الجديدة بأعباء لم يستطع تلبيتها. فتفاقمت من مشاكل النشر والكتاب وبقينا ندور في فلك صناعة النشر العالمية ولم نتمكن من بلورة برنامج نشر خاص بنا فتدنّى مستوى النشر ومحتوى النشر. وبما أن الفروق بيننا وبين العالم النامي كبيرة بقينا تابعين لنشرهم.

وبمرور السنين تميزت صناعة الكتاب والنشر العربي بأنها صناعة راكدة تعيد نفسها. فالعناوين تطبع نفسها دون تجديد أو إبداع، والإنتاج بشكل عام محدود الكمية والنوعية. ومع مرور الأعوام لم تتم البنية التحتية للنشر في العالم العربي بالشكل المطلوب، فلا تزال الأجهزة المستخدمة قديمه بأغلب الأحوال، كذلك فإن العماله المطلوبة لها غير ملائمة وغير مؤهلة. إضافة إلى المتمرسين والمستهنين لمهنة النشر كمهنة، ناهيك عن قلة المردود المادي لمن يمتهن هذه المهنة.

ثانيا:

لا شك أن المشاكل السياسية والإقتصادية في العالم العربي قد عكست نفسها على واقع صناعة النشر في العالم العربي فالحدود والقيود على نقل النتاج الفكري وأنظمة الرقابة المختلفة وتذبذبها وسطحيتها وذاتيتها في التعامل مع الكتاب، كلها مشاكل عكست نفسها على واقع الثقافة كما تأثرت بها.

ثالثا:

إن التغير السريع والغير مدروس في المناهج والخطط والدراسية وتطبيقها قد خلق جواً من الربكة لم يسمح لهذه المناهج أن تبلور خطة توأمة للمناهج باستخدام المكتبة مما أتبعه وبتدريجية فصل للمكتبة وما بها عن العملية والخطة الدراسية. وهذا بدوره قاد لعزوف الأجيال التي توالت عن القراءه والمكتبة، فابتعد أطفالنا عن الكتاب. وأوضحت هذه مع الوقت مشكلة المشاكل التي نعانيها.

رابعا:

تعددت أشكال أوعية المعلومات المطبوعة وغير المطبوعة وتطورت نظريات التعليم الحديثة التي اعتمدت على مخاطبة الإحتياجات الفردية للمتعلمين وذلك بالإعتماد على ما تقدمه تكنولوجيا التعليم من فرص لتوضيح المعلومات التي يقدمها الكتاب المدرسي بطرائق مختلفة ومتعددة.

وجاءت التكنولوجيا بتطوراتها العديدة والمتوالية لتخلق عامل جذب لأطفال اليوم لا يضاهي ولا ينافس، يستخدم الألوان والحركات والأصوات التي تشدهم وتجذبهم لها. إلى أن قاد هذا

التطور الهائل لعالم الكمبيوتر وما جلبه معه من إشاعة لأجواء الإتصالات السريعة ما بين شتى بقاع الأرض. فكان عالم الإنترنت وما جلبه معه من عوالم واسعة وشاسعة وممتدة في محتواها و قيمها وشكلها وموقعها. وبدأنا نتكلم عن العولمة والقرية الصغيرة ومخاوفنا كما تأملاتنا منها.

إذا فإنسان اليوم والغد يميزه أنه لا يعتمد فقط على مهارة الكتابة والقراءة وإنما مهارة المعلومات والبحث عنها. هذه الحقيقة التي بدورها كانت وراء استخدام مصطلح أمية المعلومات ليحل محل أمية القراءة والكتابة التي لطالما تحدثنا عنها. وكأني أرى بالتالي العبء باتجاه خلق جيل قارئ يتضاعف علينا يوميا ويزداد مع تنامي قصورنا في التعامل معه.

وهكذا نعى البعض الكتاب واعتبر حياتنا وقت ضائع فلا نحن أتقنا القراءة وتمكنّا منها ولا نحن واكبنا التطورات فخلقنا جيل القرن الواحد والعشرين المعتمد على المعلومات وكما عبر المثل الشعبي "لا طبنا ولا غدا الشر"

فماذا نفعل والعبء يتضاعف يوما بتزايد وسائل منافسة الكتاب من فيديو، تلفزيون وستلايت؟ وبتوالي وتعاقب أجيال الكمبيوتر المختلفة وازديادها في طور ويتنامي المعلومات وازدياد اعتماد الإنسان الحديث على المعلومات والتكنولوجيا؟ وكيف نواجه هذا الفراغ الشاسع والمتزايد ما بيننا وبين المعلومات في أي وعاء كانت؟

لا شك أننا هنا نتحدث عن نفسية ومهارة وعادة تجاه الكتب والقراءة وتجاه المعلومات والتكنولجيا. فإذا اتفقنا على أن لا غنى لنا، نحن المقبلون على القرن الواحد والعشرين، عن المعلومات أعتقد أننا نكون قد حققنا الكثير باتجاه هذه القضية ألا وهي قضية المعلومات والإنسان الحديث.

ويقود ماسبق سرده لموضوع عملية إبتكار الحلول أو استشفاف هذه الحلول من واقع ما أراه من تجربتنا في دولة الكويت.

أولا:

يجب أن تتضافر الجهود للتنسيق على موضوع تقريب الأطفال من الكتب وغرس عادة القراءة والبحث عن المعلومات. ولا يتحقق ذلك إلا بالتزام البيت والمدرسة والمجتمع بهذه القضية والإيمان بها وبدور الكتاب في حياتنا. فيصبح استهلاك الكتب جزء لا يتجزء من برنامجنا اليومي. فها نحن نتراكض للأخذ بمظاهر الإستهلاك السريع ومطاعم الوجبات السريعة ولكننا نتباطأ في اقتباس وابتداع طرق إشاعة القراءة وتسهيل وصول الكتاب والمواد لأيدي القراء. (بيع الكتب الشائعة على أشرطة تسجيل تتيح للشخص الإستماع أثناء القيادة أو أثناء عمل أي عمل يدوي آخر مثلا).

ثانيا:

لا بد للعاملين في ميدان الخدمة المكتبية في المدارس من بذل الجهود لشحذ همم العاملين في هذه المكتبات لتوعيتهم بدورهم الجاد والأساسي في العملية التربوية. وهنا لا يمكن لنا من فصل ذلك عن توعية المدرسين والنظار بأهمية ذلك وكيفية تحقيق الدمج الفاعل للمناهج باستخدام المكتبة المدرسية. ويجب تتويج ذلك بالعمل الفعلي على وضع هذه التطلعات حيز التنفيذ الفعلي والجوهري فنكون بذلك حققنا الشمولية في العلاج.

ثالثا:

يرتبط بالنقطة السابقة قضايا وضع وإرساء الحدود الدنيا لصناعة النشر وإرسال دعائم وقوانين تحد من الإنتاج التجاري البحت الذي يقتنص فرصة الشح المضموني في السوق ويشجع أجواء من التنافس الفاعل نحو الجيد وليس العكس. وعند الكلام عن كتب الأطفال والناشئة بالتحديد لا يمكن التغاضي عن نوعية الورق والألوان والطباعة ناهيك عن المحتوى وأهميته للأعمار المختلفة وترغيب الأطفال بتناولها والتقرب منها وذلك باتجاه إشاعة القراءة بين أبنائنا.

رابعا:

يرتبط بما سبق أهمية الدفع باتجاه إرساء دعائم الضبط الببليوغرافي في القطر من أجل تسهيل تبادل المنشورات وسهولة التحكم بما هو موجود ومعرفة ما يصدر في مختلف أرجاء الوطن العربي. ولقد أضافت قدرات الإنترنت وتطور التكنولوجيا الحديثة بعداً جديداً ومساعداً لهذه العملية يمكن لنا استغلاله إذا ما رغبنا وتوفرت النية لذلك. وإضافة لما سبق لا بد من تشجيع نقد الكتب وتقييمها وتحليلها في مصادر ومجلات متخصصة تكتسب صفة المصداقية الإستمرارية والموضوعية مع الوقت. (ولقد كان هناك تجربة رائدة ببيروت لم يكتب لها الإستمرار للأسف وهي مجلة أطفال لمراجعات كتب الأطفال والناشئة والتى صدرت لعدة سنوات وذلك لتمين المربين والأهل والمدرسين وأمناء المكتبات فى عملية انتقاء الكتب). ولا يمكن عزل قضية الضبط الببليوغرافى عن أهمية وحيوية سن قوانين إيداع للمنشورات وحقوق المؤلفين والمبدعين وذلك لتشجيعهم على المزيد من الإنتاج والإبداع. كما لا يمكن عزل كل هذا بالطبع عن سياسات المعلومات وأهمية بلورتها وسن القوانين واللوائح والإجراءات ووضعها حيز التنفيذ من أجل تطوير البنية الأساسية لمهن المعلومات المختلفة كانت نشر أم مكتبات ومعلومات أم إعلام.

خامسا:

لابد من مراجعة أساسية لمناهج التعليم في الكويت نحقق من خلالها توأمة مابين المناهج الدراسية واستخدام المكتبة المدرسية في مختلف المواد ولا بد من التطبيق الفعلي لها في الخطة الدراسية اليومية لمختلف المواد وليس فقط مادة العربي. لماذا؟ لأن ذلك هو السبيل

الوحيد لزرع عادة القراءة والبحث عن المعلومات وأهميتها في القرارات ولتكريسها كمهارة تزرع من الصغر. وتتضافر هنا جهود الوزارات في سن القوانين الفاعلة مع جهود الهيئة التدريسية والموجهين والمكتبيين على العمل الفعلي على تطبيق هذه التوأمة بالشكل الفاعل.

سادساً:

لا بد من إيجاد ميكانيكيات لضبط الجودة ولتقييم الكتب ونقدها موضوعيا وإعانة القراء كانوا مربين، أو أهالي، أو مسؤلين في عملية الإختيار الراعي لما يشترونه لأولادهم. ويعتمد ذلك للعاملين على إختيار وتزويد المكتبات المدرسية والعامة بالمواد وذلك لتحقيق الإختيار والاستخدام الأمثل لما يحويه السوق من مواد موجهة للنشئ عامة. ومع الوقت يصبح ذلك بديلا لنظام الرقابة الحالي غير النافذ وغير الفعال والسطحي في تعامله مع قضية الثقافة والفكر. وبذلك نرتقي بقرائنا وبمحتوى نشرنا.

وهكذا يزداد العبء والمسئولية في تعليم الأجيال القادمة مهارة المعلومات وليس فقط القراءة. فالقراءة المتأصلة في النفس تصبح عادة الهدف منها غذاء الروح كما العقل وليس فقط التسلية. أي أنها حاجة ضرورية يجب الوعي بأهميتها.

وهنا لابد من أن أركز بعد هذا العرض السريع للإشكاليات على بعض الجوانب المضيئة التي يمكن أن نبني عليها وننطلق منها باتجاه الأحسن.

أولاً:

ننعم بالكويت بوجود بنية أساسية للمكتبات في المدارس تزامنت مع تاريخ التعليم النظامي. ويعكس ذلك اهتمام صناع القرار بهذا الموضوع. أي أن البنية والقرار هما لصالح هذه القضية. ويمكننا البناء على ذلك واستثماره من أجل تفعيل القراءة والبحث عن المعلومات كجزء هام في العملية التعليمية.

ثانياً:

هناك عدة تجارب رائدة في مجال النشر للأطفال سواء فردية أو مؤسساتية بدأت ترسي دعائم كتابة ونشر مميزة في الكويت أخص بها تجارب الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية وتجارب كتاب محليين مثل أمل الغانم وغيرها. هذا إضافة لجهود الهيئة العالمية لكتب الأطفال فرع الكويت KUBBY والتي تعمل تحت مظلة الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية وما تبذله من جهود باتجاه تقريب الكتب من الأطفال وإرساء دعائم مجتمع قارئ. كذلك هناك جهود لا يستهان بها قام بها صندوق الوقف في الكويت وبهذا الإتجاه. وتبقى مسئولية تقريب الكتاب من الأطفال وخلق جيل قارئ تتحملها جهات عديدة، إذا لم تتضافر جهودها بقيت المحاولات محدودة الحجم والفائدة.

ثالثاً:

عند الحديث عن قضايا النشر هناك جانب مضيئ هنا وهو أنه يمكننا النظر لهذه المهنة بعين القادم المتأخر الذي يمكن أن يستفيد من تجارب وعثرات الآخرين. وحقيقة أن الدولة الحديثة صاحب إنشاؤها صناعة نشر تركز على الاحتياجات المحلية لكل دولة تفرض علينا التركيز على إيجاد برنامج عمل واضح للنشر عندنا.

رابعاً:

لا شك أن بعض مدارس قطاع التعليم الخاص قد خطى خطوات متميزة نحو إرساء دعائم مهارات البحث واستخدام المكتبات، والتقريب ما بين الكتب والأطفال بفاعلية. وهناك جزء من هذه المدارس ثنائية اللغة لها تجربة يمكن الإستفادة منها كما أنها مؤشر هام على تطلع وتعطش المجتمع للتميز في التعليم فقد نعي العهد الذهبي للتعليم الذي عاشه جيلنا.

خامساً:

بوصولنا لعالم الانترنت والإمكانيات الهائلة التي يتيحها لنا في الإتصال بقواعد المعلومات من كل مضارب الأرض مهما بعدت أو قربت برزت لنا مصطلحات جديدة كالقرية الصغيرة والعولمة جلبت معها قضايا وإشكاليات لا يمكن لنا إلا أن نكون جزءً منها. وتبلورت ظاهرة إنتشار ما يسمى بالإنترنت كافيه التي تعد مؤشراً هاماً على روح العصر في نفوس الطلاب وتعطشهم للتماثل مع ماهو حديث لمواكبة عصر المعلومات. ويبقى الخيار لنا أن نتركها للسوق التجاري وأهوائه أم نتيحها ونوعي باستخداماتها وبمهارات التعامل معها ومع الكم الهائل من المعلومات الذي تتيحه.

وفي الختام تراني ملزمة على الاستنتاج بأن الإنسان القاريء الواعي لأهمية المعلومات كانت بالكتاب أو أي وعاء آخر سيبتغيها أينما وكيفما جاءت. وتراني مرة أخرى أنظر للكتاب وكأنه وعاء من أوعية عديدة تحمل في جنباتها المعلومات والتي هي الركيزة الأساسية لصقل الثقافة والإرتقاء باتجاه مجتمع القرن المقبل. وتراني هناك أختم بالتركيز على أهمية النظر لهذا الوعاء أو الوسيط نظرة لا تغالي برومانسيتها للكتاب أو بعمليتها للتماثل مع عصر المعلومات.